مقياس: مصادر اللغة والأدب والنقد

ثانيا: مصادر الأدب العربي

المحاضرة السابعة : المجامع الشعرية القديمة

مقدمة:

روى ابن سلاّم في مقدمة كتابه (طبقات الشعراء) أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير."

لقد ضاع كثير من أشعار العرب نتيجة الحروب والغزوات والفتوحات، بالإضافة إلى عناية العرب قديما بالمشافهة على حساب التدوين والكتابة.فما استطاع الرواة تدوينه وتخزينه كان يسيرا مما أبدعته القرائح العربية، على أن هذا النزر اليسير لم يسلم في معظمه من الضياع.

والشعر العربي بروايته وجمعه وتدوينه كان يستهوي الكثيرين من الأدباء والنقاد والدارسين، فضلا عن اللغويين والمعجميين والنحاة والعروضيين، ثم هو يهمّ المفسّرين والمحدّثين والمشتغلين بأنساب العرب وأخبارهم وأيّامهم، فهو يصّور حياة العرب قديما بكل دقة وأمانة، فقد كان الشعر يعكس الحياة العربية بكل تفاصيلها.

لقد كان لكل شاعر راويته، وهذا دأب العرب منذ الجاهلية، الشاعر الناشئ يتتلمذ على يد شاعر أرسخ قدما في الشعر، فزهير بن أبي سلمى مثلا كان راوية أوس بن حجر، وكان الحطيئة وكعب بن زهير راويتيْ زهير....ثم جاء العصر العباسي فازداد إتقان الرواة عملهم وازدادوا علما، فأنتج لنا هذا العصر: أبا عمرو بن العلاء والأصمعي وأبا زيد الأنصاري والمفضل الضبي وخلف الأحمر وابن الأعرابي وابن سلاّم الجمحي....

ولم يكد ينتهي العصر العباسي حتى أنتج لنا مجموعات شعرية ضخمة بالإضافة إلى مجموعات أدبية عامة وأخرى نقدية. فكانت البادية بظهور دواوين الشعراء ومن قبلها المعلقات، فظهرت لأول مرة دواوين امرئ القيس وزهير ولبيد والأعشى والنابغة والحطيئة والفرزدق....

أسباب ظهور المجموعات الشعرية:

في هذه المحاضرة سوف نركز على نمط المجموعات الشعرية، وقد تنوّعت بحسب الغاية من تأليفها. فقد انطوت على جانب غزير من أشعار العرب، وعُرف أكثرها بأسماء رواته وجامعيه كالمفضليات والأصمعيات وحماسة أبي تمام وحماسة البحتري.، "فقد بدا للرواة والمصنفين في إزاء تراكم هذا النتاج الشعري لدى العرب وغزارته أن من العسير الإحاطة به واستقصاءه وأن الخاصة فضلا عن العامة ينؤون بحمله، فكان لابد من انبثاق ظاهرة الاختيار هذه."

ومن أسباب ظهور المجموعات الشعرية القديمة ارتباط الأدب آنذاك بمجالس الخلفاء والأمراء، فقد كان هؤلاء يشجعون الحركة الأدبية ويغدقون على المبدعين أموالا طائلة، ولأن أصحاب الأدب كانوا بحاجة إلى المال لتيسير معيشاتهم فقد لجأوا إلى الخلفاء والأمراء وطرقوا أبوابهم بما تسكبه قريحاتهم من صنوف الشعر والأدب عموما.
ثم إن بعضا من هؤلاء الأدباء كانوا يشتغلون معلّمين لأبناء الخلفاء والأمراء، ومن أمثالهم، الجاحظ والقالي والمفضل الضبي والفرّاء والكسائي.
إن المتأمل في منهجية وضع وتأليف هذه المجموعات العشرية سوف يقف على فكرة التطور التي اتسمت بها ولازمتها، فمنذ البادية كانت أشعارا متناثرة تفتقد للتنظيم والتبويب الموضوعي، ثم صارت أكثر تنقيحا وتهذيبا وعناية بالوحدة الموضوعية كما سيتضح لنا.
فمثلا نجد ما ألّفه الجاحظ والمبرد وأيضا فيما صنّفه المفضّل والأصمعي مجرد محاولات تحتاج لإعادة تصنيف وتبويب. وهذا عهد البداية لكل أمر.
ثم انتهج التأليف سمتا موضوعيا يتجه نحو الترتيب والكمال في مثل حماستي البحتري وأبي تمام وكتابيْ عيون الأخبار والعقد الفريد،" فأصبحت المختارات المتشابهة تتضامّ بعد تفرّق لتنضوي تحت عنوان كبير واحد من مثل باب الحماسة أو المراثي ومثل كتاب الصفات أو الحرب."
ولا يكاد يفرق هذه المختارات الشعرية عن بعضها سوى اختصاص كل واحد منها بلون من ألوان الأدب رغم توحد مصادرها، كما أن اختلاف شخصيات الواضعين ألقت بظلالها على تلك الفروق، لأن لكل مؤلف بصمته الخاصة المتفرّدة في عالم الأدب.
تمتاز تلك المجموعات الشعرية بشيء من النقد الأدبي يميّزها عن باقي الدواوين والأعمال الشعرية، لأنها في الأصل تقوم على تحكيم الذوق في العناصر الفنية التي تسري في داخل قصائدها، "إذ ليس مدار الأمر فيها على التتبع والتقصي والاكتفاء بالرصد والتسجيل بل على اصطفاء الأجمل وانتقاء الأفضل واختيار الأمثل... ومن هنا كانت أمثال هذه المختارات أشمل في دلالتها على روح عصرها وأبلغ في الشفوف على ذوق صاحبها."

عناية المختارات بالشعر القديم:

كثرت عناية تلك المختارات بالشعر الجاهلي بصفة خاصة، لأن دأب القدامى هو العناية بالتراث الأول الذي منه انبثقت أجناس الأدب الأخرى، كما أن المعلوم أن الشعر الجاهلي اتخذ قداسة خاصة لدى الأوّلين، مما دفع بأصحاب المختارات والمجموعات الشعرية للعناية به وتقديمه على غيره، كما أن عوامل ضياعه وعدم تسجيله وحفظه كثفت جهودهم لتسليط

الضوء عليه والاتجاه نحو حمايته وصونه، إذ لم يجدوا من المعقول أن يتوجّهوا نحو الشعر الحديث والمعاصر لهم على حساب القديم غير المحفوظ رغم قيمته العالية، "إن عملية تأريخ الأدب بطبيعتها تالية لمرحلة النتاج الأدبي والإبداع الفني، وكان لابد من انقضاء أمد حتى تنجلي الأمور وتتضح المعالم، وحتى يقوم الزمن بغربلة النتاج ويتسنى للناس التمييز بين الغث والسمين مما صار إليهم من قرائح الأدباء. "

يضاف إلى ذلك قلة عناية الجامعين بالنوابغ من عصرهم، وتفضيل السابقين عليهم لعدة أسباب، من أبرزها أن شاعر الحي لا يُطرب كما تقول العرب، فالمعاصرون لن يبلغوا شأو الأوائل مهما بزّوا في إنتاجهم.

من أجل ذلك لا يكاد القارئ يجد في كتب المختارات الشعرية تلك ما ذاع صيته من شعر محدث في زمنها، على الرغم من شهرة الشعراء العباسيين أمثال: المتنبي والمعري وبشار وأبي نواس الحمداني وغيرهم، "حتى إن أكثر من صنّف في الشعر عصرئذ كابن سلاّم وابن المعتز حصر اهتمامه في طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين دون أن يتعدّاهم إلى الشعراء العباسيين... وبلغ ذلك بالكثيرين من العلماء حدّ التعصّب لكلّ قديم والإزراء بكل جديد."

غير أن العناية بالشعر المحدث لم تدم طويلا في طي النسيان والإهمال، فقد برز جيل من الرواة أولوه اهتماما، فهذا أبو عمرو بن العلاء يصرّح قائلا: "لقد كثر هذا الشعر المحدث وحسُن حتى لقد هممت بروايته."، فلم يمض زمن طويل حتى مال الكثيرون إلى الشعر المحدث من مثل الحسن بن بشر الآمدي وأبي بكر الصولي والجرجاني والتبريزي وابن جني وابن خالويه... بل إن البعض راح يركز اهتمامه على الشعر المحدث فقط دون القديم، على غرار ما كان يفعله بعض أصحاب المجموعات الشعرية السابقة، من مثل: ابن بسّام الأندلسي وأبي منصور الثعالبي، فانتشرت صناعة الدواوين والمجموعات التي تُعنى بجمع الشعر المحدث وتدوينه وشرحه ونقده.

وفيما يلي سوف نستعرض بعضاً من أشهر المجموعات الشعرية التي انتقت واختارت أفضل ما في بطون الكتب والمصادر الشعرية خلال العصر العباسي:

I. المفضليات:

هي مجموعة من القصائد سميت باسم من اشتهر بجمعها، وهو المفضل بن محمد بن يعلى الضبي الكوفي المتوفى سنة 168، وقيل سنة 170هـ، والشائع المعروف أن المفضل جمعها لتلميذه المهدي حينما جعله والده الخليفة العباسي المنصور مؤدبًا له. وكان المفضل سماها في الأصل كتاب الاختيارات، ولكنها بعد ذلك سميت باسمه.

وهذه كسابقتها اختلف في عددها ومن جمعها. فقيل إنها مائة وست وعشرون قصيدة، أضيفت إليها أربع قصائد وجدت في بعض النسخ، ويقول ابن النديم: "وهي مائة وثمانية

وعشرون قصيدة، وقد تزيد وتنقص، وتتقدم القصائد وتتأخر، بحسب الرواية عن المفضل، والصحيحة التي رواها ابن الأعرابي تلميذ المفضل وربيبه."

ولا يكاد يوجد من سبق المفضل الضبي في وضع مجموعة شعرية مختارة، إذ يعود زمن تأليفها إلى حوالي منتصف القرن الهجري الثاني، والمعروف أن المفضل علاّمة راوية للأخبار والآداب وأيام العرب، يقول عنه ابن سلام الجمحي: "أعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي."

سبب تأليفها:

يروى أن المفضل كان ضمن جماعة إبراهيم بن عبد الله من ولد علي بن أبي طالب وخرج معه ثائرا في من خرج على الخليفة المنصور ، وقد ظفر به أبو جعفر بعد ذلك حين وقع أسيرا لديه، ثم عفا عنه، وألزمه المهدي ابنه ليكون مؤدبا له، وللمهدي اختار المفضل هذه القصائد.
وفي رواية أخرى أوردها أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني أن المفضل نفسه قال: " كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن متواريا عندي فكنت أخرج وأتركه، فقال لي: إنك إذا خرجت ضاق صدري، فأخرجْ لي شيئا من كتبك أتفرّج به، فأخرجت إليه كتبا من الشعر، فاختار منها السبعين قصيدة التي صدرت بها اختيار الشعراء ثم أتممت عليها باقي الكتاب."
وذكر القالي في "الأمالي" أن المفضل أخرج من القصائد ثمانين للمهدي، وقرئت بعدُ على الأصمعي فصارت مائة وعشرين، ثم اختار أصحاب الأصمعي قصائد أخرى و ضمّوها إلى المفضليات، ويروى كذلك أن الخليفة المنصور هو الذي تقدّم إلى المفضل في قصائد للمهدي.

محتواها:

يتراوح عدد القصائد في هذه المجموعة بين 128 و130، وأما التسمية فيغلب الظن أنها لم تطلق من قبل المفضل نفسه وإنما نسبت إليه وعرفت بذلك من بعده.
تحتلّ المفضليات قيمة شعرية وتاريخية عالية لاحتفاظها بجانب هام من التراث الجاهلي، بالإضافة إلى كونها من أقدم ما بلغنا من مجموعات شعرية، وتمتاز أيضا بأن قصائدها قد وردت كاملة لم يُحذف منها شيء، وأنها أيضا تحتوي على أشعار بعض الشعراء المقلّين في إنتاجهم، معظمهم من الجاهلية، وبعضهم مخضرم أو إسلامي، يبلغ عددهم 66 شاعرا، ضمّهم حوالي 2700 بيت شعري، نذكر من بينهم: تأبّط شرّا، الشنفرى، متمّم بن نويرة، المرقش الأكبر، المرقش الأصغر، بشر بن أبي خازم، سلامة بن جندل، عامر بن الطفيل، أبو ذؤيب الهذلي....
وقد لقيت المفضليات اهتمامًا كبيرًا من العلماء والأدباء والباحثين في شتى العصور، فكان لها شهرة عظيمة في الأوساط الأدبية والعلمية، وقام بدراستها كثير من الأدباء العرب والمستشرقين، ومن أهم شروحها شرح ابن الأنباري وقد نشره لايل Lyall مع ترجمة إنجليزية في جزأين، وقام بعمل فهرست لها في جزء ثالث المستشرق بيفانBevan ، كما

شرحها ابن النحاس المتوفى سنة 338 ه والمرزوقي المتوفى سنة 421ه والتبريزي المتوفى سنة 502هـ والميداني المتوفى سنة 518 ه
وفي العصر الحديث حقق أصولها نخبة من المستشرقين ومن الدارسين العرب ، فظهرت لها طبعات مصرية عام 1906 م ثم 1915 م و1926 إلى غاية 1965 م وأخرى أوروبية عام 1885 م.

II. الأصمعيات

هذه المجموعات تسمى كذلك باسم الذي اختارها وجمعها، وهو الأصمعي الأديب الراوية المشهور، وتشتمل على اثنتين وتسعين قصيدة وقطعة، لواحد وسبعين شاعرًا، منهم ستة إسلاميون، وأربعة عشر مخضرمون، وأربعة وأربعون جاهليون، وسبعة مجهولون.
يعدّ الأصمعي من طليعة اللغويين والأدباء ، كان قويّ الذاكرة غزير المحفوظ، متمكنا في اللغة عالما بأنساب العرب وأيّامها وأخبارها وأشعارها، قال عنه المبرّد: " هو بحر في اللغة لا يعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية."
وأغلب ما تحتويه الأصمعيات قطع قصيرة، قد تكون الواحدة منها بيتين فقط، والأصمعيات تلتقي مع المفضليات في تسع عشر قصيدة. وكان ذلك من الأسباب التي دعت بعض الباحثين إلى أن يقولوا إن مجموعة المفضليات ليست كلها من اختيار المفضل الضبي، وإنما اشترك معه في اختيارها الأصمعي بأن زاد في مجموعة المفضل بعده بعض قصائد لم يخترها المفضل الضبي، والحقيقة أن هذه القصائد المشتركة بينهما هي في المفضليات والأصمعيات اللهم إلا في النادر اليسير، فقد تزيد قصيدة بيتًا أو تختلف لفظة في المفضليات عنها في الأصمعيات مما يثير شبهة في أصل الاختيار، أيكون ذلك مرجعه إلى أن المفضل قد اختار بعض القصائد في المفضليات، ثم جاء الأصمعي فزاد في المفضليات؟ أم كانت في الأصمعيات أصلًا ثم أدخلت في المفضليات؟ أم أنهما كانا في كتاب واحد ثم دخل بعضهما في بعض، حتى لم يتبين أيهما هذا وأيهما ذاك؟ اختلفت آراء الباحثين في ذلك، وهذا كما أشرنا إليه سابقًا، ليس إلا خلافًا لفظيًّا يرجع إلى صاحب الاختيار، ولا يمس جوهر الموضوع - وهو المختار نفسه- بشيء، فقيمة القصائد والقطع المختارة في كلتا المجموعتين، في الدرجة العليا من الأصالة والصحة، ومن ينسب إليهما اختيارها كانا من الرواة الممتازين وموثوق بصدقهما وأمانتهما العلمية.
بل إن البعض يوعز الأمر إلى خلط الورّاقين في الجمع بين المجموعتيْن في كتاب مخطوط واحد، فالتبس الأمر على بعضهم فراح يعدّ قصائد من المفضليات على أنها من الأصمعيات.
والظاهرة الغالبة في الأصمعيات قصر القطع المختارة على وجه العموم، وكذلك يمكن القول إن الأصمعيات اقتصرت على الشعر الجاهلي بصفة خاصة وجانب محتشم من الشعر الإسلامي أو المخضرم، وكثير من الشعراء نجدهم في المفضليات ولكن في قصائد أخرى، وممن اختار لهم الأصمعي: دريد بن الصمّة، عروة بن الورد، عمرو بن معد يكرب،

المهلهل بن ربيعة، المتلمّس، السموءل، مالك بن نويرة،،، وقد بلغ عددهم 72 شاعرا في مجموع قصائد بلغ عددها 92 قصيدة مفصّلة في 1439 بيتا شعريا.
وربما كان الأصمعي يبغي من وراء اختياره "وجهة لغوية"، ففي الأصمعيات يتجلى مزاج الأصمعي الذي يرجح في نظره الناحية اللغوية والنحوية في كل أثر شعري، على كل الناحية الأدبية، ولعل هذا هو السبب فيما يقال عن الأصمعيات من أنها لم تلق ما لقيته المفضليات من الانتشار والقبول.
والحق أن الأصمعيات والمفضليات جمع كل منهما ثروة أدبية لغوية ممتازة ولكن المفضليات تفوق زميلتها في كلتا الناحيتين الأدبية واللغوية، ولعل ذلك راجع إلى اختيارها في الأصل كان يقصد منه تثقيف ولي العهد تثقيفًا أدبيًّا لغويًّا يقوي فيه الذوق الأدبي الممتاز الذي يرضي الخليفة وولي العهد. وعلى كل فكلتا المجموعتين من أهم مصادر الشعر الجاهلي، ولها قيمة عالية في عالم الأدب.
وقد نشرها بالقاهرة الأستاذان عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر، نشرة علمية مضبوطة مع شرح موجز. ونُشرت في ألمانيا لأول مرة العام 1902 م ثم نُشرت بالقاهرة في طبعة علمية محققة العام 1955م.

III. **السبع الطِّوال:**

هي سبع قصائد شهيرة لفحول الشعراء العرب الجاهليين، والبعض يسمّيها: المعلّقات أو السبعيات أو المذهّبات أو السموط. ويروى أن جمعها تمّ على يد الراوية حمّاد بن ميسرة ، وقد كان معاصرا للمفضل الضبي، ويُعدّ من أعلم الناس بالشعر وأرواهم له.
يذهب كثير من النقاد المعاصرين - وحتى المتقدّمين منهم - إلى التشكيك في هذه المعلقات ، يقول ابن عبد ربه في (العقد الفريد): "لقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب وعلّقتها بين أستار الكعبة..." وقال البغدادي صاحب خزانة الأدب: " ومعنى المعلّقة أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يُعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة موسم الحج فيعرضه على أندية قريش ، فإن استحسنوه رُوي وكان فخرا لقائله وعُلّق على ركن من أركان الكعبة حتى يُنظر إليه، وإن لم يستحسنوه طُرح ولم يُعبأ به، وأوّل من عُلّق شعره في الكعبة امرؤ القيس."
والبعض ينسب هذه التسمية – المعلقات- إلى جامعها وراويها حماد بن ميسرة ، حتى إن ابن النحاس (ت 338ه) يميل للاعتقاد إلى أن حمّادا هو الذي جمع السبع الطوال غير أنه يشك في قصة تعليقها فيقول: "ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة."
فلا نكاد نجد من يذكرها بهذا الاسم من المتقدمين كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة والأصفهاني ما عدا أبا زيد القرشي في مجموعته (جمهرة أشعار العرب) دون أن يعلّق على تسميتها بشيء أو يشير إلى أمر تعليقها .
وتجدر الإشارة إلى أن البعض قد جعلها عشر قصائد لا سبعا.

من أقدم الشروح التي تناولت المعلقات شرح ابن الأنباري - شارح المفضليات أيضا- وهو شرح مسهب ينمّ على غزارة علمه، إذ تعرّض لشرحها من نواح عدة (لغة وتاريخا وأنسابا ونحوا) مستشهدا عليها موصلا ما يستلزم منها بأسلوب القرآن والحديث النبوي. كما تعرّض لشرحها الزوزني والتبريزي.
من طبعاتها الصادرة طبعة بشرح ابن الأنباري باسم (شرح القصائد السبع الطوال) بالقاهرة العام 1963م بعناية شيخ المحققين عبد السلام هارون.

IV. جمهرة أشعار العرب:

تُنسب إلى أبي زيد القرشي ، وهي شخصية لم يترجم لها الأوّلون وغير معروفة على نطاق واسع إلا من خلال هذه المجموعة الشعرية، ويجنح بعض الباحثين إلى أنه توفي العام 170 ه، والأرجح أن أبا زيد هذا قد عاش بعد تلك الفترة، وذلك لأن القرن الثاني لم يعرف فيه المؤلفون مثل هذه النزعة من التنظيم والتبويب وكتابة المقدمات.
وأما عن سبب اختياره هذه التسمية - أي الجمهرة – لمجموعته فلأنها تسمية شاعت خلال القرن الثالث ما بعده، إذ تصادفنا جمهرة اللغة لابن دريد، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، وجمهرة الأنساب لابن حزم، وجمهرة أنساب العرب لأبي الفرج...
يقول أبو زيد في مقدمة هذه المجموعة: " هذا كتاب جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام الذين نزل القرآن بلغتهم، واشتقت العربية من ألفاظهم، واتخذت الشواهد من معاني القرآن وغريب الحديث من أشعارهم وأسندت الحكمة والآداب إليهم..."
كما تطرق في مقدمته إلى أول من قال الشعر، وإلى إيراد رأي النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر حين سمعه وأجازه، ثم أسهب في تعيين طبقات فحول الشعراء والمفاضلة بينهم وإيراد طرف من أخبار متقدّميهم.
قسّم أبو زيد مجموعته إلى سبعة أقسام، في كل قسم سبع قصائد لسبعة من الشعراء، وهذه الأقسام هي: المعلقات، المجمهرات، المنتقيات، المذهبات، المراثي، المشوبات، الملحمات.
وأكثر هذه الأسماء صفات للقصائد، فالمعلقات هي التي عُلّقت على أستار الكعبة، والمجمهرات في الأصل هي النوق القوية المتداخلة الخلق كأنها جمهور من الرمل، وذلك لأن تلك القصائد تشبه النوق في متانة سبكها وقوة حبكها، وأما الملحمات فما تلاحم أجزاؤه من الشعر، والمنتقيات والمذهبات تشيران إلى جودة الشعر، وأما المشوبات فتعني أن أصحابها من المخضرمين الذين شابهم الكفر قبل إسلامهم.
ومن الملاحظ أن هذه مجرد تسميات تقريبية فيما عدا المراثي، فلا يكاد القارئ يفرّق بين قسم وآخر لكثرة التشابه الحاصل بينها جميعا، ومما يُحمد صنيعه لأبي زيد هو قدرته على التبويب والتنظيم في زمن ندر فيه ذلك السلوك الأدبي، كما يُحمد له اختياره الرقم سبعة عند التقسيم، وهو رقم ذو دلالات قوية عند العرب القدامى، إذ لا نكاد نقف على سبب مقنع يجعل أبا زيد يكتفي بسبع قصائد لسبعة شعراء دون غيرهم، فمما لا شك فيه أن التراث العربي حافل بالقصائد الممتازة لما سواهم.

من مزايا جمهرة أشعار العرب أنها أوردت قصائد لا يعثر القارئ عليها في المفضليات أو الأصمعيات، وقد نُشرت هذه المجموعة أول الأمر في مصر العام 1890 م، ومن طبعاتها الجيدة طبعة العام 1967م هي في مجلّدين يستغرقان نحو ألف صفحة.